اللغة والأدب-مجلة علمية محكّمة
ISSN: 1111-1143 EISSN: 2602-5202
العدد :31المجلد:16 ؛ الشهر/السنة:2019

Language and Literature
A peer-reviewed Scientific journal
Issued by
the Departement of Arabic Language
and Literature

اللغة والأدب

I.S.S.N: 1111-1143
E.I.S.S.N: 2602-5205

اللغة والأدب
مجلة علمية محكّمة
يصدرها
قسم اللغة العربية
وآدابها

النقد المعرفي و المثاقفة

قراءة في أطروحة محمد مفتاح

Critique cognitive et acculturation

Une lecture de la Thèse de Mohammed Miftah

أ.د حفيظ ملواني **Dr, Hafid Melouani**
جامعة البليدة 2 **Université de Blida 2**

melouani,hafid@yahoo,com

المؤلف المرسل(باللغتين): الاسم الكامل:	الإيميل:
أ.د حفيظ ملواني Dr, Hafid Melouani	Melouani,hafid@yahoo,com
تاريخ الاستلام:	**تاريخ القبول:**
2018/06/22	**2019/05/30**

ملخص باللغة العربية

تدعو هذه الأطروحة القارئ اكتشاف صيغة جديدة يتم بواسطتها تقديرو رصد نظام العلاقة القائمة بين النقد المعرفي و المُثاقفة في سياق أطروحة الناقد محمد مفتاح السجالية على ضوء منجزه الموسوم:مشكاة المفاهيم :النقد المعرفي و المثاقفة ،عبر مُتابعة قصة ارتحال مصطلح "الخيال "بين مختلف الثقافات في نطاق جهاز مفاهيمي معقد قد يصل به الأمر إلى أن يمارس فكرة التغليب على حساب الحياد في نطاق الاشتغال الدائم عبر آليات تتراوح بين التكيُّف و التقَوْلُب و التحْصِينْ .

الكلمات المفتاحية: النقد/المثاقفة/ محمد/ مفتاح

Résumé:

Cette thèse invite le lecteur à découvrir une nouvelle formule d'appréciation sur le rapport épineux établît avec une certaine dualité entre l'acculturation et la critique cognitive, d'après son ouvrage maîtresse intitulé le phare des concepts : Critique cognitive et acculturation ;afin de visualiser la manière dont le terme ″imagination ″se propulse par des voies culturelles différentes, dans un cadre épistémologique compliquée qui peut varier entre la notion de″faire prévaloir ″au guise de la neutralité et la notion ″d'accommodation″ ainsi ce que prévoit dans une autre notion appeler ″bouleversement″ sans ″ rééditer l'hypothèse qui réclame la notion de ″l'immunisation

Mots-clés: critique/ acculturation/ Mohamed/ Meftah

مقدمـــة:

اقتراح موضوع من هـذا القبيـل قـد يشـخِّص ثنائية حدية تنافسية بين النقد الثقافي و النقـد المعرفي وقد يدعو على ضوء ذلك إلى تناول سؤال إشكالي بمعنى الكلمة ؛إذ أنـه يكتسـي قدرا من الأهميـة البالغـة حيث يكـون بـدوره مرفأ لمغـامرة اسـتثنائية في نطـاق إمكانيـة تسـاؤل أي بـاحث يضـع على كاهلـه معالجـة المسـألة على قـدر صـعوبتها و تشـعُّبها في نطاق أوجـه التواصـل المعـرفي بين مختلـف فروع العلـوم الإنسـانية ومنـه تـأتي الصـيغة التسـاؤلية التاليـة :كيـف يتحقـق كيـان النقـد المعـرفي عـبر المثاقفـة ؟ وهـل باسـتطاعة النقد المعرفي زحزحة سـلطة النقـد الثقـافي من مركزيته ؟هل قام محمد مفتاح من خلال كتابـه مشـكاة المفـاهيم ضـبط أوجـه الصـلة الممكنة بين النقد المعرفي و المثاقفـة ؟ ولا غرابة أن يكون مآل المعالجة في نطاق ثلاثة أبعاد محورية ،يتصـدرها من الناحيـة المبدئيـة تقديم قراءة في اللغة الاصطلاحية التي تهتم بهـذا المنحى و منـه يتحقـق النظـر بقـدر من التأمـل الـواعي إلى بينيـة المفـاهيم الـتي تستقطبها تلك اللغة الموصـوفة بالاصـطلاحية بالقدر الذي يترتب الوقوف عند عتبة مصـطلح الخيـال تحت رايـة التواصـل الثقـافي بين المُجدي و المُضني

1 – قراءة في اللغة الاصطلاحية

السؤال الوجيه قد يتأسس على فرضية توحي بسؤال مباشر فعال : ماذا تعني المصطلحات التالية :**الثقافة ؟المثاقفة ؟ المعرفة ؟ النقد المعرفي ؟**

لقـد ورد في مقدمـة الكتـاب الموسـوم بـ **"سوسيولوجية الثقافة "** تصورا متشعبا بالقياس الذي يجعل مفهوم **الثقافة** ليس بالأمر المُتاح كمـا يتصـوره البعض ،غـير أنهـا في عمومهـا تسـتقر على كـل شـيء يختلـف عن الطبيعـة حيث يكـون الإنسـان صانعا لها أو سببا في وجودها ، فبإمكانها من زاوية نُخْبوية أن تعبِّر عن حالـة فكريـة ،و قـد تلتبس مع مُنتجات الحضارة ،و مـا يـدخل في إطار الفنون و الإبداع، على اختلاف الأشكال لكن في الجوهر تبقى طريقة حياة لدى أي مجتمـع من خلال الأفكـار و العـادات و السلوكات الـتي تعلموهـا أفـراده ،و سـاهموا في نقلهـا من جيـل إلى آخر[i] و تبعـا لهـذا المنحى التعـريفي لا ينبغي ربـط الثقافـة بالمعرفـة أو العلم لأنهـا تنطلـق من فعـل سـلوكي فـردي يتحقـق وقعُـه على متلقيه ،فالمُثقف على هذه الصورة هـو ليس ذلك المرء **"الذي يملك أكبر قدر من المعرفة ،لكنه الذي يملك أكبر قدر من الوعي. لقد تحقق له الوعي بالمعرفة و أفاد من هذا الوعي في تقرير المناسب و الأفضل و الأجمل"**[ii] ما يعني أن **المُثقف** هو الذي بإمكانه أن يترْجِم معرفته المكتسـَبة إلى سـلوك بحيث لا يهم حجم المعرفـة و لا قيمتهـا بقـدر حسـن توظيفها في السلوك اليومي ، أما **المُثاقفة** فتعني على وجه الاختصار **"هي اكتساب ثقافة مغايرة للثقافة الأصلية للفرد أو الجماعة و هي هنا تشير إلى الثقافة الأجنبية التي يضيفها الفرد أو الجماعة للثقافة الأصلية وذلك من وجهة نظر مُستَقْبِل تلك الثقافة ،حيث تضافُ الثقافة الجديدة**

إلى أو تختلط بثقافة القرد أو الجماعة المكتسبة محليا منذ الميلاد "[iii] و عليه فهي تقوم على شرطية الخوض في العلاقات الثقافية بين الأمم على قدر تعددها و اختلافها ؛ تلك العلاقات المستقاة من حيز التاريخ و الناجمة عن سيرورة تلاقح الحضارات فيما بينها إما بشكل عفوي أو حواري أو تصادمي ،أما شأن **المعرفة** فهي تعكس حالة و نتيجة في آن واحد بفعل ما يصدر من الدماغ بعبارة أخرى إنه ذلك الجهاز العصبي الذي يقوم بمجموعة من الوظائف البيولوجية و الذهنية التي من شأنها أن تُفضِي إلى الحصول على معرفة أو إنتاجها ،فالوظيفة المنوطة لا تخرج عن إطار كونها " **مجموعة من العمليات المترابطة (نسق)يؤدي إتمام إنجازها إلى وقوع حدث** "[iv] أما الحالة فهي تلك النتيجة المُترتبة عن هذه الوظيفة الدماغية وفق شروط و أوضاع و مؤشرات قائمة على ظرف معين، في ظل استحالة الفصل بينهما إلا من قبيل الفهم العلمي للظاهرة فقط فالمسألة البيولوجية مثلا تبقى وطيدة الارتباط بالمسألة الذهنية مادامت العملية سببية ووظيفية في الوقت نفسه "**فلكي تتحقق حالة الإدراك في الذهن ،لابد أن يقوم الذهن بوظيفة الإدراك .و قل ذلك عن العقل و الوعي و العلم و الفلسفة و الحكمة**"[v] فالدماغ يستقر على مناطق و هي صنفان مناطق برامج مقفلة متعلقة بالغرائز وفيها يتحكم الدماغ فيما يعرف بردود الأفعال غير إرادية (**des reflexes**) أما مناطق البرامج المفتوحة المعنية بتلقي المعلومات من المحيط على أت تكون التصرفات المترتبة عنها جِدّ مناسبة إزاءها حيث تتوزع بين منطقة الذاكرة التي تخزن المعلومات و منطقة المعالجة التي تؤمِّن عملية استقبال المعلومات الجديدة أو استحضار المعلومات المُخزَنة سلفا في الذاكرة ،و في سياق هذا النشاط المُركب إن صح تعبير يضُّم في طياته جملة من العمليات ؛ من تفكيك و تركيب أو تخصيص وتحديد أو تجريد و تعميم و حيث يحصل التفكير فإنه معبِّر عن عملية ذهنية إرادية تتسبب في إنتاج الأفكار في صورتها البسيطة انطلاقا من المحسوسات و حتى المركبة، بناء على العمليات التصنيفية المُشار إليها فيما سبق مما يؤدي إلى فهم الظواهر وانتهاج سلوكات قد تأخذ صفة المحاكاة أحيانا و قد ترتقي إلى صفة الإبداع أحيانا أخرى كما يبقى الفهم في كل الأحوال عبارة عن نتيجة لممارسة التفكير لحظة بناء تصور ذهني عن الأشياء أو الظواهر التي يجري فهمُها، سواء تحقَّقَ ذلك بشكل صحيح أو خاطئ قد يتم تبريره بحالة سوء الفهم ، و لعل هذه الحالة قد تتسبب في حصول التخيُّل باعتباره نوعا من التفكير يؤدي بدوره إلى إنتاج صورة ذهنية خيالية لموضوع ما ،فقد تكون صادقة في وضع العلم أو غير صادقة إن كان الأمر فلسفيا أو فنيا و قد يكون التفكير سطحيا ؛أي بسيطا تبعا لما ألِفه الإنسانُ في محيط الأشياء التي يدركها بصفة آلية أو طبيعية ؛في مقابل التفكير العميق ،إذ يستدعي حينئذ فعل التبصُّر ما دُمْتَ تفكر بجدية و بعمق و شمولية ،و يمكن في وضع مخالف أن يتحول إلى تأمل لحظة إخضاع هذا التفكير العميق إلى سلسلة من التركيبات و التحليلات و أخذا و ردا بين ما تعرفه سلفا و ما هو قيد المعاينة [vi] ،كما يمكن وصف **النقد المعرفي(la critique cognitive)** باعتباره ذلك التفكير الناقد لقضايا المعرفة الواردة على شاكلة طروحات أو نظريات تفسر الواقع أو الفكر أو أمور أخرى ،فما يستدعي استحضار مصطلح النقد المعرفي هو سبيل لفهم حقيقة هذه العلاقات أو

الصلات من الوجهة المعرفية و هذا هو صلب الموضوع ،إذ يترتب عن ذلك نتاج فكري علمي ثقافي يدعم و يعلل و يبرر هذه الرؤية الانفتاحية دون أن نتناسى أن العبرة متوقفة على الدوام في إدراك وجود ذات عارفة هي الإنسان ،هذا المرء الذي تجد في حوزته جملة من المعارف التي يترجمها في سلوكاته و في أقواله و في عاداته ، و حيث يكون هذا الإنسان بدوره موضوعا للمعرفة، مؤدى ذلك إلى إيجاد فرصة تلاقي الثقافات و المجتمعات عبر لغات مختلفة، مع الأخذ بعين الاعتبار الأوضاع و التطورات الحاصلة في ميادين معرفية شتى بما في ذلك الظواهر الأدبية ، بالقدر الذي يحقق تحصيل المعرفة بالكيفية حتى يتحقق غرض معرفة الآخر بقدر من التفاعل و التعاضد فيحصل التبادل و الانتفاع في مستوى القيم و المعارف ،فالناقد من الوجهة الأدبية ستجده حتما أثناء مقاربته للنص الأدبي يستثمر كافة السبل المعرفية حتى يستوعب بالقدر الكافي الثنائية الضدية بين ما ينتسب إلى الأدب و ما هو خارج عن إطاره فحينما تقرأ رواية " **كتاب الأمير**" لواسيني الأعرج مثلا قد تستطيع أن تفصل الحقيقة التاريخية ضمن سيرورة ما وراء النص السردي في مُقابل وجود الحقيقة السردية ببعدها الفني المحض ضمن عالم الرواية ،فلك أن تقرأ ما كُتِبَ على الواجهة الخلفية من صورة غلاف الرواية " **المغامرة من الناحية تستحق كل الاهتمام لأنها تلغي الحافات حافة التاريخ و حافة المُتَخيل فهي لا تقول التاريخ لأنه ليس هاجسا و لا تتقصى الأحداث و الوقائع لاختبارها ،فليس ذلك من مهامها الأساسية .تستند فقط إلى المادة التاريخية و تدفع بها إلى قول ما لا يستطيع التاريخ قوله** "[vii]وهذا بعينه لا يصدر إلا من أغوار ما يتيحه النقد المعرفي أن يصل إليه ،فالناقد على هذه الصورة استوعب حقائق تاريخية من مصدرها و في الوقت نفسه أدرك مستحقات صناعة الرواية ،و اقتنع بأن صميم المعرفة التي تقدمها الرواية ليست بتلك الحقيقة اليقينية التي تدفع إلى استسلام القارئ بهذه السذاجة العقيمة ، وعليه سيكون للأثر المعرفي في الممارسة النقدية معنى لا غبار عليه.

.2-بنية المفاهيم و مسالك المعالجة

يرى محمد مفتاح في مقدمة كتابه الموسوم بـ "**مشكاة المفاهيم :النقد المعرفي و المثاقفة** " أنه منجز يدخل في سياق الخصوصية المعرفية التي اشتغل عليها ضمن مشروعه المنفتح على التغيرات و هو يدارس النصوص العربية التراثية بقوالب منهجية حداثية توافقا مع النظرية السيميائية و البنيوية و الرياضية **(option mathématique)** مستغلا فضاء التأويل ضمن الوصفة التي ترضيه ، ولعل هذا الطرح الوصفي العقلاني يتأسس انطلاقا من إيمانه بفكرة **"اقتراح مفاهيم جديدة لتحليل ظاهرة المثاقفة و أساسها المكين الذي هو الخيال "** [viii] ،يفهم محمد مفتاح النقد المعرفي باعتباره مقاربة غرضها بناء مفاهيم معرفية شارحة لفكرة المثاقفة على شاكلة التناص في ظل توظيف كل ما له صلة بنظرية المعرفة و علوم أخرى كسند ينظم أطروحته التحليلية في قراءته لآليات تمثل لهذه المثاقفة [ix] .

لقد أراد محمد مفتاح من هذه الزاوية تحديدا أن يكشف عن السياق المعرفي الذي أوجد

علة التواصل الثقافي بين الحضارة العبريــة و العربية و الهلينية عبر آليـة إبداعيـة متمثلـة في الخيــال ،فمن حيث المنطلــق قــدم البــاحث فرضية تفيد بأن "**الخيال قوة و ملكة من بين القوى و الملكات التي لدى كل إنسان عادي مثل السمع و البصر و التفكر و العقل** "[x] لقد وجد بحسب الرؤية العبرية أنه يـدل على الخلـق أو الإبـداع بحيث سـعت هـذه الثقافـة إلى ربـط صـفة الخلـق الإلهية بالصفة الإنسانية فيُ

فهم من ذلـك أن المـرء تتشـكل في مخيلتـه الصورة التي لم تكن موجـودة من قبـل على هيئة الخلق يقـول محمـد مفتـاح في السـياق نفسه: « **يقرر بعض المختصين في دراسة الموضوع أن ما يقابل الخيال في اللغة العبرية هو[yetser] و هذه الكلمة من جذر[Y.Z.R] و ما اشتق من هذا الجذر يعني الخلق و الجَبْلُ (جَبَلَ: (فعل) جبَلَ يَجبُل ويَجبِل ، جَبْلاً ، فهو جابِل ، والمفعول مَجْبول / هُوَ اللَّهُ الَّذِي جَبَلَ خَلْقَهُ : خَلَقَهُمْ وَفَطَرَهُمْ) و الصنع وقد نُصَ على هذا المعنى في سفر التكوين (الفصل 2 الآيات 7؛8؛26 ؛27) في الآيات التالية (إن الرب جبل الإنسان ترابا من الأرض و نفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفسا حية ،و غرس الرب الإله جنة في عدن شرقا و جعل هناك الإنسان الذي جبله)(و قال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا فخلق الله الإنسان على صورته)و قد اقترحت الترجمة العربية لـ yetser العبرية الجبل و الجعل و الصنع و الخلق ؛ إنها مرادفات عربية مترجمة لجذر عبري تولدت منه مترادفات أيضا** » [xi]
انتقلت الدلالة نتيجة هـذا السـياق الـديني إلى مفهوم الشـهوة و الغوايـة ؛فالخطيئـة باعتبـار محــرك ذلــك الفعــل هــو الخيــال غــير أن التلموديين صـنفوا الخيـال إلى قسـمين خيـال يــدل على الإثم و خيــال آخــر يعتبرونــه في نظـرهم صـورة من صـور التواصـل مـع الله عزوجل الذي يفهم من خلالـه درجـة الكمـال الإلهيـة في الخلـق و في السـياق التصـنيفي الأخلاقي للخيـال صـار يقـوم على متناقضـين فكل خيال يؤدي إلى الحقيقة فهو خير ،و كـل خيــال يــؤدي إلى الزيــف أو البطلان فيحمــل معنى الشر.

أما شأن الخيال في الثقافة العربية فهو شبيه بالطيف و قد يتفق مع حالة تمثل الصورة عند الإنسان و هو في حالة اليقظة، و في عموم ذلك ينكشف مفهوم الخيال عند العرب باعتباره ظنا ووهما و محاكاة و في ذلك يشير محمد مفتاح إلى الآية الكريمة التي يقول فيها الله تعالى:« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (65) **قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66)** فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (70) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (71) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (74) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (76) »[xii] **بل يصل إلى درجة التكبُّر فيرد في قوله تعالى** «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) »[xiii] و لعل نقطة التقارب بحسب محمد مفتاح في مفهوم الخيال لدى الثقافتين نتيجة وقوع التحوُّل من الوجهة الاستعارية ؛من مفهوم التمثُّل و التشبُّه إلى مفهوم الإثم ؛ بالنظر إلى الميزة اللغوية بين العبرية و العربية وقوفا على الجذرين الجذر العبري (Y.Z.R)و الجذر العربي (و.ز.ر)له علاقة بفعل وَزَرَ فتقول **وَزَرَ** الرَّجُلُ : أَثِمَ ؛أي اِرْتَكَبَ إِثْمًا إلى جانب البعد الديني عبر فكرة خطيئة آدم (عليه السلام) تبعا لما ورد في التوراة و التلمود و النص القرآني من قبيل أننا نجد على حد تعبير محمد مفتاح **" نواة مشتركة لا يمكن دحضها .من المعروف أن هناك** آيات قرآنية تتحدث عن عهد الله لآدم [**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)**][xiv]**و لكن إبليس أو الحية أغوت آدم و زوجه و زينت لهما الرغبة في الخلد و الملك الذي لا يُبلى فعصى آدم ربه بصُنع ما صنع فأُخرِج من الجنة إلى الأرض ليجعله الله خليفة له فيها "**[xv] و من زاوية أخرى تطرق إلى مفهوم الخيال عند الهلنيين هؤلاء الذين أسسوا حضارة توسطت بين الحضارة اليونانية و الرومانية فـ**"كانت الهلينية حضارة خرجت إلى الوجود في أواخر العصر الألفي الثاني قبل الميلاد و احتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ ؛حتى القرن السابع من العصر المسيحي و كان أول ظهور لها على جانبي البحر الإيجي و انتشرت من هناك إلى ما حول شواطئ البحر الأسود و البحر المتوسط ثم اتسع نطاقها برًا فتوغلت صوب الشرق إلى آسيا الوسطى و امتدت غربا إلى شواطئ شمال افريقيا و أوربا المطلة على المحيط الأطلنطي بما في ذلك جزء من الجزيرة البريطانية"**[xvi]،فبعد أن أدرج محمد مفتاح تصور اليونانيين للخيال وفق تصور أفلاطون

الذي اعتبره خارج إطار الحقيقة المثلى حيث يقول الباحث في هذا الصدد :« **خيال الفنان ينتج صورا تؤجج الرغبات الحيوانية مما يؤدي إلى تعزيز العناصر الحسية الوضيعة ،و قد يستمد خياله من أوهام و من خداع الحواس فتحصل أخطاء .و الخيال طفل شقي على متبنيه أو ولد بئيس لأب بئيس و يتجلى شقاؤه أو عقوقه في أنه يريد أن يسلب من خالقه قدرته و سلطته إنه مشرك يخلق الأوثان و يعبدها** »[xvii] بالمقابل حضي مقوم الخيال عند أرسطو بالإيجاب مخالفا أستاذه أرسطو حيث جعله تارة يتوسط بين الإحساس و العقل و تارة أخرى ملكة مستقلة محايدة [xviii]و لعل قد نتحدث عن رحم المثاقفة الموصولة بالطبيعة المعرفية و التي يمكن الاصطلاح عليها بالنقد المعرفي عندما استخدم محمد مفتاح مصطلح التأغرق و هو يقصد من خلال ذلك تلقي و تفاعل الفلاسفة العرب مع المفهوم اليوناني لمصطلح الخيال فينطلق من العتبة الأولى التي تكرس فكرة النقل دون التأويل و هو ما ينطبق على ابن رشد الذي كرس مفهوم الخيال عند أرسطو باعتباره قوة من قوى النفس حيث يكون الخيال آلية لإنتاج المعرفة بصرف النظر عن صدقها أو كذبها **"فمشكلة الخيال مفتاح باقي القوى الأخرى لأنها متعلقة بالطبيعة و بالأخلاق و بالدين و نتيجة لهذه الشمولية فإن نظرية أرسطو في الخيال مزيج من الثقافة التوراتية و الفلسفة الأفلاطونية من حيث النظرية الأخلاقية "**[xix]وفق هذا الاعتبار تمّ تقسيم النفس الإنسانية إلى قوى ثلاثة قوة ناطقة تختص بالإنسان بوصفه حيوانا ناطقا ثم القوة الحيوانية حيث يقع فيها منشأ الحس و التخيّل إضافة إلى القوة النباتية و هي الدنيا مع العلم أنه في كل الأحوال" **للتخيل القدرة على إحضار تلك المحسوسات بعد أن تغيب مادتها ،أي يعيد تصوّرها في الذهن من دون خضوع لشرطها الهيولاني مع أن التخيل لا يتصورها إلا في طبيعتها الحية .و للعقل القدرة على تجريد الماهيات من العلاقات المادية و إدراكها في منتهى التجرد"**[xx] و عليه يتحقق تنظيم القوى وفق النظام التراتبي التالي فهناك العقل الذي يحتل المرتبة الأسمى ثم الخيال في المرتبة الوسطى و في آخر المرتبة تأتي الحواس، فمن شأن الخيال استحضار صور الأشياء حتى يتسنى إعطاؤها معنى و هذا قد يتماشى مع فكرة تفسير الرؤى و الأحلام فإذا كان ابن رشد يسلم بأن الخيال يعتمد على الحواس فابن سينا يجعل الخيال يتوسط بين العقل و الحس باعتبارهما سبل تحقق الإدراك المُحقِق للمعرفة فـــ " **نحن إذا رأينا شيئا في المنام فإنما نعقله أولا ثم نتخيله و سببه أن العقل الفعال يفيض على عقولنا ذلك المعقول ثم يفيض عنه إلى تخيلنا ،و إذا تعلمنا شيئا فإنما نتخيله أولا ثم نعقله فيكون بالعكس من ذلك الأول و نحن إذا أردنا أن نعلم شيئا تستعد النفس لقبول معرفة ذلك من العقل الفعال بإزالة المانع العائق لها عن هذا الطلب فيتخصص استعدادها "**[xxi] قد نلتمس من فكرة ابن سينا فرضية استطاعة الإنسان أن يختلق صورا مبتدعة من مخيلته دون المرور بالحواس أي أنها عبارة عن **"عملية ابتكار لصور متخيلة تتولد بموجب عوامل نفسية داخلية**

عرضية الأمر الذي جعل الخيال يدخل مرحلة جديدة في الخطاب السينوي عندما اقترن بالجانب السيكولوجي "[xxii]و لعل منطقة العبور بين فهم الخيال و توظيفه بين الثقافتين الإغريقية و العربية هي آلية إثبات مصدر انتقال المعرفة بين الطرفين ،و لكن ماذا يعني في سياق ذلك حدوث تواصل ثقافي في تصور محمد مفتاح ؟

3-موقع الخيال من التواصل الثقافي

الإقرار بالتواصل مع الآخر ضمن المنظور العربي التراثي هو عودة صريحة إلى المنجز الفلسفي و الثقافي و الأدبي عند الإغريق ،فبحسب محمد مفتاح هناك تثاقف يتشكل عبر منطق الحاجة فيصطلح عليه بالثقافة الحيوية و هي تحتمل تسمية الثقافة الشعبية و لا نعني بها فكرة التقاليد بقدر ما نعني ما يغلب على المجتمع من أفكار و سلوكات في مختلف المسائل الحياتية التي تكون قيد اهتمامه أما تجاوز شرط الحاجة فالمسألة تستدعي صنفا آخر من الثقافة يسميها مفتاح بالثقافة العالمة و هي تحتمل تسمية ثقافة النخبة ، فحيث تُعتبَر الثقافة ثقافة حيوية فهي تعكس بصورة آلية مطلب القبول و التكيف بحيث تتشر إلى أن تصير بمثابة ثقافة أصلية حتى و إن بدت مستوردة فتتكرس لديها فكرة الاحتواء ، و هذا قد يبدو ظاهرا في سبل العيش ومنطق الاستهلاك، أما عندما يتعلق الأمر بالثقافة العالمة فإن كانت تملك صيغة تطبيقية في الواقع فقد يحصل في سياقها القبول التي يسميها مفتاح بالقولبة و التكيف كما هو شأن تلقي العرب لمختلف العلوم الوافدة ؛لكن إذا ما أخذت صبغة فكرية من أجل التغليب و الهيمنة فتقاوم بفكرة التحصُّن و التحصين مع فكرة الهامش و المركز حيث يستحضر محمد مفتاح مصطلح الإبعاد و المَحْيَطة و هو منظور لا يعترف **"إلا بالمحيط الشامل الذي يصنع تفكير الإنسان و معاييره ،و كلما اختلفت المحيطات اختلفت ضروب التفكير و السلوك ،كل إنسان عالَم في نفسه و مقياس لذاته "**[xxiii]

و لك في سياق ذلك أن تُمَوْقِع العلاقة بين الثقافة العربية الإسلامية و منظومة الحداثة أو ما بعد الحداثة الغربية الوافدة، يقول محمد مفتاح :«**إنه لما طفقت بوادر ما بعد الحداثة تتشكل في أوروبا بدأت تتعرف الثقافة العربية الإسلامية على بعض مبادئ الحداثة مما يبرز الفروق الزمنية الهائلة و نتائج هذه الفروق .و من النتائج أن ثقافتنا يتداخل فيها الماقبل حداثة بالحداثة و بما بعد الحداثة** »[xxiv]و عندما نريد أن نجسد هذا التواصل في مقام التعليل فيجدر بنا أن نموضعه و نقرأه عبر صلة التلقي الثقافي الأدبي بين ابن رشد و أرسطو من خلال النموذج النقدي المركزي في الأدب و المتمثل في فن الشعر عند أرسطو ،يقول محمد مفتاح في هذا السياق :«**يذهب المختصون إلى أن ابن رشد لخص كتاب فن الشعر في حدود سنة (570هـ - 1174 مـ) و هذا التلخيص هو ما عرفت ترجمته في العالم اللاتيني و استمرت مؤثرة إلى عصر**

النهضة .لخص ابن رشد القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم أو لأكثرها مع الإشارة إلى بعض القوانين الخاصة باليونان و عاداتهم التي ليست موجودة في كلام العرب .و من القوانين المشتركة لجميع الأمم و إن كانت درجة تجلياتها تختلف ،هو قانون المحاكاة»[xxv] مهما يكن فكان موضوع المحاكاة السياق المعرفي الذي يؤدي إلى مقولة الخيال و منه التخييل عبر جنس الشعر حيث تتحقق آلية المثاقفة وفق الاعتبارات التالية :

1.3 –القولبة

تتحقق من خلال الباعث الفطري لدى أي إنسان ، فجميع البشر يشتركون أو يتطابقون في مسائل عدة لا يمكن أن تقابل بالرفض أو النفور و هو ما جرى عليه ابن رشد عندما أقرَّ بفكرة مفادها"**وجود قوانين شعرية مشتركة لجميع الأمم أو للأكثر مثل المحاكاة و القياس و التمثيل و التشبيه**"[xxvi] على نحو الأشعار و الألحان العذبة تماشيا مع فطرة الإنسان و استحسانه لها، فاللذة هي مقام للاستجابة الطبيعية للذات الإنسانية

2.3–التمثُّل

هو لا يلغي فكرة الغير و إنما يبحث عنها في ثقافته الأصلية التي ينتمي إليها باعتبارها الوجه المقابل لما تمَّ تقديمه من هذا الآخر ففي نظر ابن رشد ما يقابل المأساة في الثقافة اليونانية يتناسب مع غرض المدح في الثقافة الشعرية العربية و على منواله فإن ما يشكل الملهاة ضمن الثقافة الوافدة فنجد بديلا عنها أو على الأقل مقابلا يغطي حاجة النقص و هو غرض الهجاء كما يبدو أن هذا التمثل قد يتجسد أكثر ضمن أوليات فن الترجمة

3.3 –التكيّف

عندما تغيب إمكانية التقابل فينبغي تجاوز الأزمة عبر فكرة التكيف و في ذلك تضعف حدة المقاومة من خلال البحث عن حل وسط يجمع بين الثقافتين ما يعني لزوم الاندماج مع الثقافة الجديدة بالقدر الذي يمكن القيام بفعالية التغيير و التجديد على مستوى الثقافة الموروثة و في هذا النطاق ينبغي أن يخضع الوافد إلى مسلمات الثقافة المستقبلة حتى يحصل الاحتضان و التآلف على سبيل الذكر دون التحديد فالمعطى اليوناني يجعل للشعر وظيفة أخلاقية أما ابن رشد فأراد أن يمدد المساحة الأخلاقية إلى الشرع على منوال ما يرد في الخطاب القرآني و السنة النبوية الشريفة و حيث يقع التمثيل الشعري فتحصل الوظيفة المعرفية لكن ضمن الثقافة التراثية العربية فالأمر يستدعي الامتثال إلى شروط تحاول أن تعكس بصدق فكرة التكيّف عبر ثنائية تجمع بين التحوّل و التعرّف "**التحوُّل هو الانتقال من الضد إلى ضدِّه و أما التعرف فهو الانتقال من المعرفة إلى الجهل أو العكس** "[xxvii]فمقارنة بالشعر اليوناني في نموذج المأساة أو الملهاة يتحقق الشرط النوعي من حيث الوفاء بركني الضرورة و التحسين ففي

الضـرورة نكتشـف أن للشـعر غايـة ينبغي تحقيقها عبر اللجوء إلى المحاكاة و التشـبيه ؛ على أن تبـنى القصـيدة ضـمن إطـار تركيـبي منطقي بدايـة فوسـط فنهايـة أمـا الشـرط الكمي فله علاقة بـ**"المدخل و الدخيلة و المَخْرج و نشيد الجوقة"** [xxviii]و لعل هذا التوجه جعل ابن الرشد ينتقد الشـعر العـربي بسـبب أنـه يفتقـر إلى موضـوعات ووسـائل وغايات لا يتوفر عليها كما يتوفر عليه النمـوذج الوافد ، و قد يُفهم من ذلك أن للشعر العربي نقائص قابلة لأن تستدرك عـبر هـذا الوافـد و هنا يكون مربط تحقق التكيُّف ،و مؤدى ذلـك أن على الشاعر العربي أن يصف الواقع كمـا هو و هنا يحصل التوافق مع فكرة الضـرورة أما التحسين أو حتى التقبيح فقد لا يسـمح بـه إن كان الغرض المخالفة بواسطة الكـذب أو الافتراء فعدة الشاعر هو المقياس الأخلاقي بالدرجة الأولى

4.3- التحصُّن

يقع التحصـن من أمـور موجـودة في الثقافـة الوافدة و هي أمور لا يُرغبُ في تحققها على مستوى الثقافة المسـتقبلة ،و يوجزهـا محمـد مفتاح في أمـرين و همـا الأغلاط الشـعرية و التوبيخات ،يقول محمد مفتاح في هذا الصدد :« **و أمثلة التوبيخات غير موجودة عندنا إذا كان شعراؤنا لم تتميز لهم هذه الأشياء و لا شعروا بها و أمثلة التوبيخات مغرقة في الخصوصية اليونانيـة** »[xxix] يتحـدد مبـدئيا الغلـط حيث يتعذر الشاعر تصليحه كحال حـديث الشـاعر عن أمـر غـير موجـود و لا يـدخل في عـدة المُحتمَـل من حيث المحتـوى، أو حـتى في طريقة عرض الموصوف، كأن يجعـل لأنـثى الحيـوان قَرْنًـا و هـو أمـر لا يصـح ؛أو أن يسـتخدم لفظـا يثـير الالتبـاس على مسـتوى الدلالة بسبب تقارب المدلولات ؛ أو أن يحاكي شيئا بشـيء ضـده [xxx] و من شـأن التـوبيخ أن يقـع حينمـا يحصـل الخـروج عمـا تمّ الإعلان عنه في مقدمة الطـرح ؛غـير أن التفصـيل من طرف ابن الرشد في هذا السـبيل لم يتحقـق بذريعة قوله :«**الكتاب لم يُترجم على التمام و أنه بقي منه التكلم في سائر فصول أصناف كثير من الأشعار التي عندهم .و قد كان هو وعد بالتكلم في هذه كلها في صدر كتابه .و الذي نقُصَ مما هو مشترك هو التكلم في صناعة الهجاء .لكن يشبه أن يكون الوقوف على ذلك يُقَربُ من الأشياء التي قوبلت في باب المديح** »[xxxi] و قد نلحظ في موضع آخر وجه التداخل بين التغليط و التوبيخ انطلاقا من فرضية تفيد :«**و الأغاليط و التوبيخات التي بإزائها هي هذه الإثنا عشر ،و يدخل في خمسة :غير الإمكان ،أو المحاكاة بالمُضاد أو بما يجب ضده أو التحريف أو الصناعة التصديقية أو كونه غير منطقي** » [xxxii]ما يعني أن تمظهر مـا يُعـاب عليـه يُقابـل بـالنفور و الاسـتهجان و يحسـن ضمن وضـع المثاقفـة التخلُّص منـه إن أمكن ذلـك أو التقليـل من حجم نفـوذه ووضـعه ضـمن الأمـور السـاقطة الـتي يمكن التجـاوز عنهـا فلا تحظى بالعنايـة و تسـليط الأنظـار عليها

5.3 –الإبعاد

تعني حصول الرفض القطعي يمنع التجـاوب مع الفكرة المخوَّلة لأن تكون قابلـة للتصـدير من طـرف الآخـر و العلـة قـد تعـود إلى مخالفتهـا لمُعتقـد الثقافـة المُسـتقبِلة أي مـا يكـون سـببا مباشـرا في إحـداث التنـاقض و الخروج من ثمة عن الثوابت الـتي تـرتقي إلى مصف التقديس و في ذلك يشير محمد مفتـاح إلى فكـــرة الآلهـــة و المـــرأة و العبـــد فيقول :«**يظهر أن العامل الديني كان وراء ذلك الأبعاد ،ذلك أنه لم يكن ليقبل منه الحديث عن الآلهة و أنْسنتها و تشبيهها ،و كان العامل الدينيو الاجتماعي وراء إهمال الحديث عن المرأة و العبد في الفصل 15 إذ جعل أرسطو المرأة أدنى مرتبة من الرجل و العبد مخلوقا خَسِيسًا**»[xxxiii] معنى ذلك يُترجَمُ هذا الرفض بعدم إثـارة الموضـوع و اعتمـاد تقنيـة التلخيص المُقَصِّـر، ويبـدو أن ابن رشـد في هذا الوضع إمـا أن يكـون مقتنعـا بفكـرة الرفض أو أنه يفضل تجنب انتقادات معارضيه من الفقهاء

6.3 –التأغرق

يتمظهر في هـذا الموضـوع منطـق المُغالبـة ضـمن سـياق المُثاقفـة باعتبـار المُصـدِّر هـو النافذ و المسـتورد هـو الطـرف الـذي يجـري عليـه أمـر النفـوذ، فيقـع على الثـاني وقـع الخضوع و كأنه أمر يحصل فيـه الاستسـلام و الخنوع و التآكل و هـذا مـا يـبرر قـول محمـد مفتاح :« **يعتبر بعض الناس أن ابن رشد قد تأغرق و ذاب في شخصية أرسطو و تابعه متابعة فاعتبر ما جاء عنده من قوانين لصناعة الشعر اليوناني أصلا يقاس عليه الشعر العربي و من ثمَّ هاجم الفرع لأنه ناقص عن الأصل في الشكل و في المضمون** »[xxxiv] و عليه تبقى المسألة في سياق الجدال المعرفي الخالص هل كان ابن رشد تابعا أنه مجددا في الفهم.

. الهوامش :

[i] يُنظَر هارلمبس و هولبورن .تر:حاتم حميد محسن .سوشيولوجيا الثقافة و الهوية .دار كيوان للطباعة و النشر و التوزيع ط 1 2010 .دمشق .المقدمة .ص 7-8 .

[ii] - إبراهيم الصعبي. جدلية الثقافة و المعرفة المعاصرة :المعاني و المضامين .مجلة المعرفة .ع529 التشرين الأول 2007 .دمشق.ص293 .

[iii] -جمال نجيب التلاوي.تر:ماهرمهدى و حنان الشريف .المثاقفة:عبد الصبور و إليوت "دراسة عبر حضارية " ط 1 2005 المنيا ص 7 .

[iv]- مجلة المعرفة .ع 496 كانون الأول 2004 .دمشق.ص 166 .

[v] -الدورية نفسها.

[vi] -يُنظر الدورية نفسها .ص169 -172 .

[vii] -واسيني الأعرج .كتاب الأمير :مسالك أبواب الحديد .الفضاء الحر ط 1 نوفمبر 2004 الجزائر .

[viii] - محمد مفتاح .مشكاة المفاهيم :النقد و المثاقفة .المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء ط 1 2000 .تقديم .ص 8.

[ix] - يُنظر المصدر نفسه.ص 8 .

[x] - المصدر نفسه .ص 10 .

[xi] - المصدر نفسه ص 10 .

[xii] - سورة طه .الآية 66 .

[xiii] -سورة لقمان .الآية18 .

[xiv] -سورة طه.الآية 115 .

[xv] -محمد مفتاح .مشكاة المفاهيم.ص 11 .

[xvi] -أرنولد توينبي .تر :رمزي جرجس .تاريخ الحضارة الهلينية .الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ط 2003 ص 19 .

[xvii] - محمد مفتاح .مشكاة المفاهيم.ص13 .

[xviii] - يُنظَر المصدر نفسه .ص 14 .

[xix] -المصدر نفسه .ص 16 .

[xx] -الأخضر جمعي .نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين.ديوان المطبوعات الجامعية ط 1 1999 بن عكنون الجزائر
ص 162 .

[xxi] -ابن سينا.تح عبد الرحمن بدوي .التعليقات .الدار الإسلامية .بيروت د.ت.ط . ص83 .

[xxii] -علي محمد هادي الربيعي .الخيال في الفلسفة و الأدب و المسرح .دار الصفاء ط1 2012 .عمان الأردن .ص 69 .

[xxiii] - محمد مفتاح .مشكاة المفاهيم ص 35 .

[xxiv]-المصدر نفسه .ص 33 .

[xxv]- المصدر نفسه .ص79 .

[xxvi]- المصدر نفسه .ص85 .

[xxvii]- المصدر نفسه .ص81 .

[xxviii]- المصدر نفسه.ص81 .

[xxix]- المصدر نفسه.ص 89 .

[xxx]- يُنظر أرسطو طاليس .تح :عبد الرحمن بدوي .فن الشعر .دار الثقافة بيروت ط 1973 18. ص196 - 197 .

[xxxi] -ابن رشد.تح: تشارلس بتروث وأحمد عبد المجيد هريدي.تلخيص كتاب الشعر .الهيئة المصرية العامة للكتاب .القاهرة .ط 1986 . ص 132 .

[xxxii]- **أرسطو طاليس .فن الشعر.**ص 197 .
[xxxiii] - **محمد مفتاح .مشكاة المفاهيم.ص90 .**
[xxxiv] - **المصدر نفسه .ص 90 .**